عين الطائر

محمود عبد الوهاب

انعطف نحوي النورسُ الصغير كعادته، تتبعه النوارسُ الأخرى، حتى إذا ما اقترب من المكان الذي أقف فيه على الشاطئ وتفحّصني جيّداً، وتأكّد من مجيئي، رمقني بعينه الجانبيّة ثم تقوّس بعدها، في حركة مباغتة، مُرتدّاً إلى سربه الصغير الذي تركه في البقعة الشاهقة من السماء... لتنتظم النوارس، من جديد، في قلادة متحرّكة مشعّة تامّة التكوين.

أقف هنا الآن حيث يمتد أمامي الشاطئ شريطاً طينياً ينقطع أحياناً عند فتحات جداول صغيرة تتوغّل نهاياتُها داخل البساتين وبين أحرّاش النخيل. ومن مكاني عند حوض ماء مهجور لمحتُ سرب النوارس يبتعد ليحوم، في طيران رتيب، حول ساريةِ سفينةٍ نصف غرقى.

يحدث هذا دائماً منذ أن سحرني اعتدالُ الجوّ وحملني على التردّد إلى هذا المكان للتنزّه. هل أسمّي ما حدث نزهة؟. قبل قليل كنت أتشاغل بالسحب والسماء والريح والزوارق محاولاً، من دون أن يلحظني أحد، أن أصغي إلى الهمس الذي يتبادله عشّاقٌ متناثرون أقعى بعضُهُم على الحافّة الإسمنتية للشطّ مثل طيور مائيّة... عندما فوجئتُ بمجموعة النوارس تطير بجواري، تخترق في طيرانها المتواني حدّي الظل المتخثّر عند شجيرة الرمّان وضوء الشمس في البقعة المكشوفة. وكانت النوارس تبدو، وهي تتناوب في طيرانها بين الظلّ والضوء، رماديةً كلّما دخلتْ عتمة الظل، وحنّائيةً ذوات سيقان من نار حين تصطبغ بضوء الشمس الآيل إلى الاحمرار. غير أنّ النَّوْرس الصغير بحجم الكفّ، الذي أعرفه جيّداً، ظلّ ينعطف حولي في دورات خرساء لا أسمع فيها سوى حفيف ريشه وهو يمرق في المكان، حتى كدتُ لفرط بهجتي به أن أكلّمه.

قبل ليلتين عندما عدتُ من تطوافي اليومي واستلقيتُ على سريري وكان المطر يسقط ثقيلاً والأشجار معتمة، ألفيتُهُ أمامي يخفق بجناحيه. كيف لم ألتفت إليه طول هذه المدّة؟ مجموعة من النوارس تنقضّ على تلّة موج هائل تتشظّى مياهه إلى أعلى مثل انفجارات ضوئيّة وسط ضجيج من الهدير والزعيق وخفق الأجنحة وعويل الرِّيح اصطكّ لعنفها زجاجُ الصورة المعلّقة أمام السرير مُحدِثاً بريقاً ثلجيّاً تطايرت لشدّته النوارسُ هاربة، بينما ظلّ نورسي الصغير وحده يدنو ويدنو. وكنت أسمع لزحزحة جسده، وهو يقترب، صريراً لا ينقطع، حتى إذا ما استقرّ في مكانه فتح منقاره القرنيّ وأخذ يحدّثني، بقافاته الهوائيّة المتقطّعة، عن الأصقاع النائية. وبعد حين كفكف جناحيه وحزم نفسه مثل دمية آلية وتركني أستغرق في نومي العميق الذي صنعه.

القلادة ذات التعرّجات الضوئيّة من النوارس تتجمّع أمامي في سماء هذا الصباح، والعشّاقُ حولي، والسفينةُ نصف الغرقى الملأى بالثقوب والذكرياتِ هامدةٌ، وأسرابُ النوارس تحوم حول ساريتها المائلة، تطير وتطير وتطير في صمت ولاجدوى كأنّها تسبح في داخلي، ونورسي الصغير يخرق دائرتها معاوداً، في لمحةٍ، طيرانَهُ الجماعيّ المحموم.

لماذا أحسستُ الآن بالرَّغبة في الدنوّ منه والإمساك به؟

استدرتُ صوب النوارس وتقدّمتُ بضع خطوات؛ دنوتُ من حافة الشاطئ، وعندما استقرت قدماي المرتبكتان على آخر طابوقة من رصيفه مددتُ جذعي داخل الشطّ محاولاً تقليص المسافة بيننا. استدار نحوي نورسي الصغير: رأسه تجاهي، ومنقاره منغرز في الفضاء يتفحّصني بعينه اللحمية في حركة مرتجفة، يدور ويدور ويدور وندور معاً في حلقات أخذت تضيق حتى قضينا على المسافة التي تفصل بيننا.

لا أحد غيري هنا الآن. لا شيء سوى الماء وأضواء شفافة وأشكال متلاشية. أفردتُ جناحي وصفقتهما محاولاً أن أنهض من على الأرض في توازن تام. استدرتُ صوب الشطّ مخترقاً فضاءه باسطاً جناحيّ على الرقعة المائيّة والعشّاق ومباني المدينة. وعبر جناحيّ المنبسطين في الفضاء لمحتُ مكاني القصيّ، حيث كنتُ أقف، يغور وينتثر كلّما اندفعتُ إلى أعلى تحت إغراء التماعات الفضاء الفضيّ الجميل.

بغداد